

النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل الأول

تاريخ النصرانية في جزيرة العرب

هيا بنا الآن بمد هذه المقدمات الوجيزة فبحث عن النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية وهما البعثان اللذان جعلنا الفصول السابقة كتهيد لهما

الباب الأول

مبادئ النصرانية بين العرب

قلنا في مطلع كلامنا أن الافادات التي خأفها كتبة العرب عن الاديان الشائعة في جزيرتهم قبل الاسلام ترة قليلة. وهذا القول يصح أيضاً في النصرانية مع انها كانت اقرب اليهم عهداً فاذا ذكروا الدين المسيحي لا يكادون يذكرون من تاريخه غير شيوعه في بعض القبائل. هذا اذا اعتبرت فصولهم الوجيزة التي خصوها بالاديان. بيد انهم في عرض كلامهم عن بعض عادات العرب وقصدهم وامثالهم ولمجتبىءم حدا بهم الامر الى ان يأتوا بماومات أخرى عديدة تجدها متفرقة متشتتة في تأليفهم لم يجمعها حتى الآن العلماء. المستشرقون لانشغالهم بالبحث عن آلهة العرب وعن ذلك رموز دياناتهم القديمة ونشر ما وجدوه السائحون في بلادهم من الكتابات الحجرية في اللغات الحديرية والنبطية والصنوية فضلاً عن اليونانية واللاتينية او ما استخراجوه بالحفر من الآثار بمد مخاطرتهم بالحياة

وكذلك ورد في كتب نصارى اهل الشرق ولاسيا قداماء الروم والسرمان وبعض الكتبة اللاتينيين فرائد شتى عن النصرانية في انحاء العرب دونها في معرض رواياتهم التاريخية ووصفهم الاجتماعية ورحلهم العلمية وفي اخبار بعض اولياء الله القديسين الشهداء او النساك كما رأوه بالعيان او استفادوه من شهود عيانين او كتبة موثوق

بهم فهذه المعلومات أيضاً عظيمة الشأن غاية الاثمان لم تُجمع حتى اليوم تماماً وانما روى منها بعض الكتب فصوراً تحتاج الى توسيع وتكملة فنخصّ منها بالذكر الكتب والمقالات الآتية ما عدا ما ذكر من ذلك في التأليف التي عدّها ما في الفصل الاول:

١ اعمال البولنديين : مقالة لاب كر بنثيه اليسوعي في النصرانية بين العرب

1 E. Carpentier S. j. *De SS. Arelha et Runa Commentarius* (Acta SS., X, Octob., 661—697).

٢ اصول النصرانية في بلاد العرب للعلامة ريت

2 Wright: *Early Christianity in Arabia*, London 1855.

٣ الشرق المسيحي للاب لوكيان

3 Lequien: *Oriens Christianus*.

٤ دي سامي : مقالة عن تاريخ العرب قبل محمد

4 Le B^{on} Sacy (S.): *Mémoire sur l'Histoire des Arabes avant Mahomet*.

٥ تاريخ الدول العربية بين المسيح ومحمد

5 J. J. Reiskii: *Primæ Iusæ Historiæ Regnorum Arabicorum inter Christum et Mohammedem*.

اعلم انّ اقدم الآثار النصرانية كما لا يخفى الاناجيل الاربعة وتاريخ اعمال الرسل للقدس لوقا ورسائل بعض تلاميذ الرب الاولين . وكلاهما من القرون الاول للمسيح كما يقرُّ به معظم الاباحيين فضلاً عن المومنين . وإن كان اولئك يخالفون انكاثوليك في تعيين سنة كتابة هذه الاسفار واصحابها . فهذه الآثار لا تخلو من الدلائل على ان العرب نالوا شيئاً من انوار النصرانية منذ بزوغ شمسها

ولعلّ اول من استحق ان يُنظم من العرب بين تبعة السيد المسيح اولئك الشيوخ الذين عرفوا بالجوس فاتوا الى بيت لحم واهدوه اُنظافهم وسجدوا له كما اخبر متى في انجيله (ف ٢) . اما كونهم من العرب او على الاقل بعضهم فاننا على ذلك عدة بيانات ترجح هذا الرأي ان لم تنجز به قطعياً . فن ذلك اقدم نصوص الآباء . والكتب الكنسيين من القرن الثاني للمسيح الى القرن الخامس الذين يجعلونهم عرباً كالقدس يوستينوس في القرن الثاني في مباحثه مع تريفون . وترتوليان المعلم في كتابيه ضد اليهود (ف ٩) وضد مرقيون (ك ٣ ف ١٣) . والقدس قريانس في القرن الثالث في ميمره عن كوكب الجوس . والقدس ايفانايوس في القرن الرابع في شرحه لدستور الايمان

(عدد ٨) . والقديس يوحنا في الذهب معاصره في المير الثاني على شرح انجيل متى . وهكذا فسر هولاء الكتبة آية اشعيا النبي من المسيح (ف ١٠ ع ٦) : « كثرة الابل تفساك بكران مدين وعيفة كلهم من شبا ياتون حاملين ذهباً ولباناً يبشرون بتسايع الرب » . وسبق داوود فقال (مز ٧١) : « ملك سباً وشبا يربون له العطايا » . فأن مدين وعيفة وشبا كلها تدل على نواحي العرب . وعليها تدل أيضاً اللطاف التي قدموها للمسيح ابي الذهب واللبان والمر وكلها من مرائق بلاد العرب . فان ذهب انحاء العرب كان مشهوراً (١) وتنبأ داوود بتقدمه للمسيح (مز ٧١) فقال : « يؤدون اليه من ذهب شبا » . اما اللبان والمر فلا يكادان يستخرجان من غير جزيرة العرب فيشجرهما اهلها كما شهد على ذلك قدام الكتبة بعد سفر التكوين (٢٥ : ٣٧) . ثم يؤيد هذا الرأي قول المجوس في الانجيل لهرودس بانهم رأوا نجم المسيح في الشرق فاتوا لیسجدوا له فقولهم « في الشرق » يدل على بلاد العرب أكثر من سواها لوقوعها شرقي فلسطين فضلاً عن كون العرب يعرفون بالاسفار المقدسة يني الشرق (وبالعبارة دي ٣٦٦٥٠ بمعناها) بل شاع هذا الاسم عند الرومان واليونان فاشتقوا منه Sarraceni و Sarraceni . وزد على ذلك ان النجم الذي رآه المجوس هو الكوكب الذي سبق وانباهم به بلعام في . شارف . قراب (سفر العدد ١٧ : ٢٤) لا قال « انه يطلع كوكب من يثوب ويقوم صولجان من اسرائيل » . ففتحت النبوة حيث تنبأ بها بلعام مرغوماً فتناقل العرب نبوته ابناً عن اب وراقبوا كوكبه حتى رأوه . ولا بأس من كون هولاء القادمين الى مهد المسيح يدعون مجوساً . فان هذا الاسم كان يطلق عند العبرانيين على حكماء الشرق عموماً وكثيراً ما اتى الكتاب الكريم على حكمة العرب في سفر ايوب وسفر الملوك الثالث (٣٠ : ٤١) وسفر باروك (٢٣ : ٣) . وقد شهد كتبة اليونان بان فيثاغورس الفيلسوف رحل الى جزيرة العرب ليأخذ الحكمة عن اهلها . بل صرح بليديوس الطبيعي بان بلاد العرب كانت بلاد مجوس (٢)

(١) قل سترابون ان الذهب لا يُدَنُّ في بلاد العجم لكن في بلاد العرب In Perside aurum nullum effoditur, effoditur tamen in Arabia (Strabo, l. XVI)

(٢) اطلب تاريخه الطبيعي « Magos » Fuere in Arabia quos Graeci et Latini

vocant (Plin., Hist. Nat. XXV, 5)

وفي الانجيل الطاهر شاهد آخر على سبق العرب في معرفة السيد المسيح وذلك لما ذكر البشرون متى (ف ٤ عدد ٢٤ - ٢٥) ومرقس (٣ : ٧) ولوقا (٦ : ١٧) في جملة الجوع المتقاطرة الى اسماخ صالح الرب اهل آدوم والمدن المشر وما وراء الاردن . فلا شك ان صيته يكون بلغ العرب القاطنين في تلك الجهات . بل ذكر الانجيل (متى ٨ : ٣١ ومرقس ٧ : ٣١) ان السيد المسيح عبر الاردن وتجوّل في المدن الواقعة ما وراء ذلك النهر ومرّ بالمدن المشر (١) رضع الآيات في بقعة الجرجاسين . وكان اهل الحضرة والمدن من العرب يسكنون تلك الانحاء . فلا يقبل العقل انهم لم يتتبعوا شيئاً من انوار ابن الله الكلمة

ثم ما لبث العرب ان نالوا نصيباً طيباً من الدعوة المسيحية وذلك يوم حاول الروح القدس علي التلاميذ في المليّة الصهيونية كما اخبر القديس لوقا في سفر الاعمال (ف ٢) فانه صرح بانّ العرب كانوا في جملة الذين عاينوا آيات ذلك اليوم الشريف وسماوا الحواريين يتكلمون بلغتهم العربية . فلا جرم ان بعضاً منهم كانوا في عدل الثلاثة الالف المصطفيين ذلك اليوم (اعمال ٢ : ٤١) فلما عادوا الى بلادهم نشرها بين مواطنهم ما رأوا وسماوا من امر المسيح وتلاميذه

وبعد مدة قليلة اثار اليهود على تلامذة الرب تلك الاضطهادات التي ذكرها صاحب الاعمال (ف ٨) فكانت على شبه الريح التي تقوي الشجرة النامية وتوصل جذورها في الارض وتمتل بزورها الى امكنة اخرى فتزداد وتتفرق . واول من يذكر من الرسل انه دخل بلاد العرب هو الانبا . الصطفي القديس بولس فانه اخبر عن نفسه في رسالته الى اهل غلاطية (ف اع ١٧) انه بعد اهتدائه الى الايمان بظهور السيد المسيح له على طريق دمشق واعتماده على يد حنانيا التلميذ هرب من دسائس اليهود الى جزيرة العرب حيث اقام مدة . فن البديهي ان ذلك الرسول الذي خصه الله بدعوة الاسم باشر منذ ذلك الحين بالتبشير فدعا الى النصرانية من رآهم من العرب مستعدين لقبول دين الخلاص فلا يحل به ذلك الربيل الذي كان يوجس منه فرعاً حيث قال (١ كور ١٦ : ١) : الربيل لي ان لم تبشر . وعليه فنصادق على قول الذين يجاملون بولس الرسول

(١) اطلب في المشرق (١١ : ٨١) . مقالة للاب الفردي دروان في رحلة السيد المسيح الى قنينة والمدن المشر

كأحد رسل الرب. وقد عدّه بعض كتبة الروم كأول الدعاة الى المسيح في بصرى
حاضرة حوران

ولما جرى نحو السنة خمسين للمسيح اقتراق الرسل اذ ساروا الى اقطار المعمور
ليقوموا بهمة التبشير التي امرهم بها سيدهم كان لبلاد العرب نصيب حسن في هذه
القصة المباركة فان التعاليد القديمة تتواصل وتتفق على ان بعض الرسل تلمذوا امم
العرب وقبائلهم من جهات مختلفة وقد جمع العلامة يوسف السمعاني في مكتبته الشرقية
في المجلد الثالث القسم الثاني (Bibl. Or. III¹, 1-30) كثيراً من شواهد كتبة
اليونان والسرمان والعرب تثبت كرازة الرسل في احياء العرب وفي اقطارها المتباينة
كبداية الشام وجهات طور سينا واليمن والحجاز وال عراق يذكرون منهم متى وبرتلداس
وتداس وشمثا وتوما. وقد نقل بعض هذه الشواهد المؤرخون المسلمون نقسهم كالطبري
في تاريخه (ج ١ ص ٢٢٢-٢٣٨) والي الفداء في تاريخه (١: ٣٨) والمريزي في
الخطط (٢: ٤٨٣) وابن خلدون في تاريخ الدهر (٢: ٤٧) والمسعودي في مروج الذهب
(١: ١٢٧). هذا فضلاً عن بعض تلاميذ الرسل كنيابلس الشمس وتيمون واذي ار
تدأي ممن تناقل الرواة خبر بشارتهم بين العرب. وكفى دليلاً بهذه الشواهد المتمدة على
ان الدعوة النصرانية التي امتدت الى اقاصي المعمور لم تهمل جزيرة العرب القريبة من
سهد الدين المسيحي بل كان اهلاماً يقبلون كل يوم الى فلسطين ويمتدجون بسكانها امتراج
اللا بالراح فيما مارتهم ويتاجررتهم. وقد ذكر القديس ايرونيوس في شرحه على نبوة
ارميا (ف ٣١) ونبوة زكريا (ف ١١) انه كانت تقام اسواق سنوية قريباً من سيحيم
(نابلس) يأتي اليها عدد عديد من نصاري زهيرد ووثنيين يتصدونها للتجارة من بلاد
الشام وفينيقية والعرب. فلا تتعدى اذن طرقة ان الكدنا انتشار النصرانية في بلاد العرب
منذ عهد الرسل. وبذلك تحققت نبوات الانبياء الذين سبوا وتنبأوا باهتداء العرب
وايمانهم بالمسيح. قال النبي اشعيا بعد وصفه العجيب للسيد المسيح (ف ١٤١ - ١٠)
ذاكراً الشعوب التي تقبل شريته فجعل منها آدم ومواب. وكرر ذلك في الفصل ٤٢
وعدد قبائل قيदार وبلاد سلع (Pétra) وفي الفصل ٦٠ ذكر بين المستيرين بانوار
اورشليم وملكها الموعود مدين وعيفة وسبا وتيدار والنبط وفيه يذكّر قدوسهم على المسيح
ليهدره الطائفهم من ذهب ولبان. وكان النبي داوود (في مزموذيه ٦٧: ٣٢ و٦١: ٨٠

(١٠) سبق اشيا في ذكر سجد الرب للمسيح وطاعتهم له. ومثلهما ارميا في فصله التاسع حيث ذكر « اقتاد الرب للامم المختونين مع التلف . . . أدوم وبني عمرون وموتب وكل مقصوسي الزوايا الساكنين في البرية »

وفي السنة ٢٠ للميلاد تمت نبوة المسيح عن خراب اورشليم فلم يبق فيها حجر على حجر وتفرق بقايا اليهود شذر مذر بعد ان قتل منهم وسي الألوف ومئات الألوف الأنا من كانوا تصروا منهم كانوا باس الرب سبغوا وخرجوا من المدينة وعبروا الاردن وسكنوا في مدن العرب التي هناك كما اخبر اوسايوس المؤرخ (١٠١) فاستوطنوا تلك الاصقاع وكان يرعاهم اساقفة من جنسهم. وقد وجد اصحاب الآثار في ايماننا عدداً دثراً من كتبهم الدينية كالانجيل الاربعة وبعض اسفار التوراة وقطاً طقسية وانشيد وصلوات وغير ذلك مما يشهد على نصرانيتهم وسكاهم زماناً طويلاً في تلك النواحي. وهذه البقايا كانت مكتوبة باللغة الفلسطينية اي الآرامية الشائعة في فلسطين. ولا ريب ان العرب الذين حل بينهم هؤلاء النصارى اخذوا شيئاً من تعاليمهم واستأذروا بانوار دينهم واذا استفتينا اقدم آثار النصرانية وما كتبه آباء الكنيسة الأولون في القرون الأولى

للميلاد وجدناهم يذكرون الدعوة المسيحية في جزيرة العرب أما تعريضاً وأما تصريحاً فننصرونهم بذلك قولهم جميعاً بانّ الايمان المسيحي « منتشر في العالم كله » فان صح هذا القول في البلاد القاصية حتى الهند والعجم وجزائر البحر أفلا يكون أيضاً صح بالحري في بلاد العرب المجاورة لمنبع الدعوة المسيحية. فقدى القديس مرقس في آخر انجيله (٢٠: ١١) مؤكداً بانّ تلاميذ الرب « خرجوا وكرزوا في كل مكان والرب يمدل معهم ويثبت الكلام بالآيات ». وبهذه بقليل كان يشكر بولس الرسول اهل رومية في رسالته (٨: ١) على انّ ايمانهم يبشر به في العالم كله. وفي رسالة القديس اغناطيوس النوراني تلميذ الرسل الى اهل افسس (PP. GG., V, col. 647) يذكر « الاساقفة الذين يرعون المؤمنين في العالم كله ويتفقون جميعاً بالايمان ». ومثله معاصره القديس بوليكرسوس الذي كان يدعو المسيح « راعياً للكنيسة الكاثوليكية المنتشرة في العالم كله » (ibid., col. 1035) فهذه النصوص وغيرها كثير تثبت صريحاً انتشار الدين المسيحي في العالم كله قشمل أيضاً بلاد العرب ولولا ذلك لما امكن القديس اوغسطينوس

ان يقول في شرحه على الزمور ١٦ (PP. LL. t. 36, col., 669) « نحن الكاثوليك متبثون في الارض كلها لاننا نمان بكل مكان ما للسيد المسيح من المجد ونشترك به »
 واما استطاع تبة كيرلس الاورشليمي ان يقول في تعليقه الثامن عشر (PP. GG., t. 33, col. 1043) :
 « ندعى كنيسةنا كاثوليكية لانها منتشرة في كل السكوة من قاصي تخوم الارض الى اقصى حدودها » وسبهما القديس قيريناوس قال في كتاب وحدة الكنيسة (PP. LL., IV. col. 502) :
 « ان الكنيسة تلتقي اشعتها في كل المعبر » وقال معاصره القديس ايريناوس في كتابه ضد المرطقات (PP. GG. VII. col. 550) :
 « ان الكنيسة المنتشرة في سائر العالم قد ورثت الايمان من الرسل وحفظته بكل حرص »

وزاد عن هؤلاء ايضا في اواسط القرن الثاني للمسيح القديس يوستينوس الشهيد من اهل نابلس في مباحثه مع تريزون اليهودي (PP. GG., VI, col. 750) فعد بين من دانوا بدين المسيح « الساكنين في الحميم واهل البادية » قال : « ليس مطلقا جنس من البشر سواء كانوا من اليونان او البرابرة وباي اسم تسموا حتى العاشقين في القربات (الاسقيين) والساكنين في الحميم الذين يرعون المواشي واهل البادية الذين لا يجأرون في بيت الا وبيتهم جرع يقدهون الصلوات والقربات للرب باسم يسوع المصلوب »
 وقال ايريناوس معددا الشعوب التي دخلت بينهم النصرانية (PP. GG. VII. col. 554) وقد دعا العرب باهل الشرق كما روى مفسروه : « هذا الايمان المسيحي هو اليوم منبث في العالم كله . . . ترى الالسنة مختلفة والنفس واحدة والقلب واحدا سواء اعتبرت آل جرمانية او الايبيريين او القلتيين او سكان الشرق او مصر او ليبيا والاسم التي في اواسط الدنيا فكلامهم يتقدمون اعتادا واحدا يشبه اياتهم الشمس التي تضيء العالم كله وهي واحدة »

وللمعلم ترتليان في اوائل القرن الثالث نصوص متعددة يؤكد فيها انتشار النصرانية بين كل شعوب زمانه مها كانت بعيدة او مجهولة فاقولك بالعرب قال في كتابه الى الامم (Ad Nationes, c. 8) « تأملوا انه لا يوجد اليوم امة الا ودخات فيها النصرانية (non ulla gens non christiana) وفي الفصل السابع من ردوه على اليهود يمدد في جملة المتصبرين ليس فقط الامم الخاضعة للرومان

« لكن غيرها كثيرة كالسرمانيين والدافيين والجرمانيين والاستيشين وقبائل مجهولة واقطار متفرقة وجزائر البحر قريبا كلها يعرف اسم المسيح وفيها يملك »
 وكثيرا مادعا الكتبة جزيرة العرب باسم الهند لاسيا جهات اليمن وقد شاع هذا الاسم بهذا المعنى (اطلب البولنديين في المجلد العاشر من اعمال القديسين من شهرت ١ ص ١٧٠) . واليا اشار القديس يوحنا في الذهب في يد م على اليهود (PP. GG., XXX. 500) قال : « انظر بأي سرعة انتشرت الكنيسة في كل اطراف السكونة وبين كل الشعوب وذلك بمجرد فضل الاقتناع حتى ان انما كثيرة تركت اديانها وتعاليم اجدادها وشيدت هياكل لتعبد فيها الرب فمنها ما هو واقع في ممالك الرومان كالاستيقيين والمثاربة واهل الهند ومنها ما هو خارج عن تخوم الرومان الى جزائر بريطانيا واقاصي العالم »

وبعضهم قد دعوه صريحا باسم العرب او الاسماعيليين . قال انونيزس في القرن الثالث للمسيح يذكر الشعوب الوثنية التي يثر جينها الرسل فاذنشت الكنائس لمن تنصر منهم (ك ٢ ف ٥ و ١٢) : « انظروا العجائب التي جرت في السماء المصور منذ ظهور المسيح حتى انه لا يكاد يوجد الآن امة عربية بالهجيئة الا لطفت خشونتها محبة به واخذت عقلها للانان بتعاليمه فانتفتت على ذلك اجيال الناس المتباينة المختلفة طباعا وآدابا . ومما تقدر ان تحديه من هذه الشعوب اهل الهند والصين والفارس والماديين والذين يسكنون في بلاد العرب ومصر وجهات آسية وسوريا . وفي كل الجزائر والاقاليم »
 قرى انه احصى بلاد العرب في جملة من دان للمسيح في ذلك العهد . وقد ذكرهم المؤرخ سوزمان (PP. GG. ١, 67, 1476) في القرن الرابع وافاد « ان بعض قري العرب ودساكرهم يوجد فيها اساقفة » . وكذلك صرح بذكرهم تاودور يلس في القرن الخامس في كتابه المعروف بدراة اضاليل اليونان (PP. GG. T, 88 p, 1037) قال : « ليس فقط قد خضعت للمسيح الامم الحاضرة لشرايع الرومان كالجنس المتأخمين لثية وقبائل الاسماعيليين . . . بل حتى غيرهم من الامم احتوا زودهم لتعاليم الصيادين وشرايع الانجيل كالسرمانيين والمهند والمجم والصينيين (Seræ) والبريطانيين والجرمانيين » . وقال مثل ذلك في محل آخر في كتابه المسمى التاريخ الرهباني (PP. GG. ١, : 82, q. 1471)
 (لة بة)